

## حرمة الظلم

٢٨ - يقول الحق سبحانه في الحديث القدسي :

« يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالُمُوا »<sup>(١)</sup>.

أضلُّ الظلم هو محبة الانتفاع بجهد الغير، فعندما تظلم واحداً فهذا يعني أنك تأخذ حقه، وحقه ما جاء به بجهد وعرقه، وتأخذه أنت بدون جهد ولا عرق، ويتبع هذا أن يكون الظالم قوياً.

لكن، ماذا عن الذي يظلم إنساناً لحساب إنسان آخر؟

إنه لم ينتفع بظلمه، ولكن غيره هو الذي انتفع، وهذا شرُّ من الأول، لأنه ظلم إنساناً لِنفع عبد آخر، ولم يأخذ هو شيئاً لنفسه.

إذن: فالظلم إما أن يكون الانتفاع بثمرة جهد غيرك من غير كد، وإما أن تنفع شخصاً بجهد غيره.

إن الله يريد أن تكون حركة حياتنا نظيفة شريفة، حركة كريمة، فلا يدخل في بطنك إلا ما عرقت من أجله، ويأخذ كل إنسان حقه.

وهذا أمر دائر بين الحق والباطل.

والباطل زائل، وهو الذي لا يدوم، فهو ذاهب.

أما الحق فهو الثابت الذي لا يتغير.

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ وَتُذِلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِإِلَافٍ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧)، وأحمد في مسنده (١٦٠/٥)، والبيهقي في مننه الكبرى (٩٣/٦) والبخاري في الأدب المفرد (ص ١٧٢، ٤٩٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

فلا تأكل بالباطل، أي لا تأكل مما يملكه غيرك إلا بحق أثبتته الله بحكم.

فلا تسرق، ولا تغتصب، ولا تخطف، ولا تترش، ولا تكن خائناً في الأمانة التي أنت موكل بها، فكل ذلك إن حدث تكون قد أكلت المال بالباطل.

وحين تأكل بالباطل فلن تستطيع أنت شخصياً أن تُعفي غيرك مما أبخته لنفسك، وسيأكل غيرك بالباطل أيضاً.

وما دُمْتَ تأكل بالباطل، وغيرك يأكل بالباطل، هنا يصير الناس جميعاً نهباً للناس جميعاً، لكن حين يُحكم الإنسان بقضية الحق فأنت لا تأخذ إلا بالحق، ويجب على الغير ألا يعطيك إلا بالحق.

وبذلك تخضع حركة الحياة كلها لقانون ينظم الحق الثابت الذي لا يتغير.

### لماذا؟

لأن الباطل قد يكون له علو، لكن ليس له استقرار.

ويضرب لنا الحق سبحانه مثل الحق والباطل، فيقول:

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا<sup>(١)</sup> رَابِيًا<sup>(٢)</sup> وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ طَرَفِ الْإِصْبَرِ<sup>(٣)</sup> كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً<sup>(٤)</sup> وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

إنه سبحانه يعطينا من الأمور المُحسَّنة ما نستطيع أن نُميز من خلاله الأمور المعنوية.

فالحق سبحانه يُنزل من السماء ماء فيسيل في الأودية، والوادي هو

(١) زيد الماء: ما يعلوه عند جيشانه واضطرابه من الرغوة وحطام الأشياء. وزيد المعادن: خبثها ونفائتها.

(٢) ربا الشيء يربو: زاد ونما. وارتفع وعلا على وجه الماء.

(٣) جفاً الرادي غثاء: رمى بالزبد والقذى. وكذلك جفأت القدر: رمت بزبدتها عند الغليان.

(٤) لسان العرب - مادة: جفاً.

المكان المنحصر بين جبلين، فإذا نزلت الأمطار على الأعالي فإنها تنحدر إلى الأسفل وتسيل في الأودية.

وكل وادٍ من الوديان يأخذ على قدر سعته، وباقى المياه يبحث له عن مسلك آخر، ولو إلى باطن الأرض.

ويأخذ السيل في طريقه أشياء كثيرة مثل جذور النباتات، وبقايا ما يحمله الهواء، والحق سبحانه يجعل هذه الأشياء تطفو على السطح، لأنها غُثَاء. وساعة يطفو الغُثَاء، فإنك أن تفهم أن ذلك عُلو، إنه عُلو إلى انتهاء، كذلك فَوَرَّة الباطل.

إياك أن تظن أن الزبد له فائدة، أو أن ارتفاع الريم كان عُلواً على ما في القدر.

لا، إنه تطهير.

وعلى هذا، فالحركة الحلال لا يكفي فيها أن تتحرك فقط، ولكن يجب أن تنظر إلى شرف الحركة بآلاً تكون في الباطل؛ لأن الذي يسرق إنما يتحرك في سرقة، ولكن حركته في غير شرف، وهي حركة حرام.

إذن: كل مسروق في الوجود نتيجة حركة باطلة، وكذلك الغُصْب، والتدليس<sup>(١)</sup>، والغش، وعدم الأمانة في العمل، والخيانة في الوديعة، وإنكار الأمانة.

كل ذلك باطل، وكل حركة في غير ما شرع الله باطل، حتى المعونة على حركة في غير ما شرع الله، كل ذلك باطل.

ويقول الحق سبحانه:

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨].

والحق سبحانه لا يقول إلا الحق، فلا شيء خارج عن ملكه.

وهو سبحانه لا يريد الظلم على إطلاقه، من نفسه ومنكم أنتم أيها العباد.

(١) المدالسة: المخادعة. وقد دالس ودلس في البيع وفي كل شيء إذا لم يبين عيبه. والتدليس في البيع: كتمان عيب السلعة عن المشتري. (لسان العرب - مادة: دلس).

وللظلم مظاهر، كأن تأخذ إنساناً بغير جُرم، أو أن تعاقب إنساناً فوق الجرم، أو ألا تعطي إنساناً مُستوى إحسانه.

والظالم يريد يظلمه أن يعود الأمر بالنفع له، فإن كان يريد أخذ إنسان بغير جُرم فهو يفعل ذلك ليروي حَقْدًا وغيلاً في نفسه.

وقد يُلَفَّق لإنسان جُزماً، لأنه يرى أن هذا الإنسان قد يُهدّده في أي مصلحة من المصالح، وهو يعلم انحرافه فيها، فيعتقله مثلاً، أو يضعه في السجن حتى لا يفضحه.

إذن: لا يمكن أن يذهب إنسان عن الحق إلى الظلم إلا وهو يريد أن يُحقّق منفعة أو يدفع عن نفسه ضرراً، واللّه لن يحقق لذاته منفعة بظلم، أو يدفع ضرراً يقع ممن خلقه عليه.

إنه مُنَزّه عن ذلك، فهو القاهر فوق عباده.

والحق سبحانه إذا نظرنا إليه - وهو قوة القوى - إذا أراد أن يظلم - وحاشا لله أن يظلم - فماذا يكون شكل ظُلمه؟

إن الظلم يتناسب مع قوة الظالم، فقوة القوى عندما تظلم فظُلمها لا يُطاق.

ثم، لماذا يظلم؟

وماذا يريد أن يأخذ، وهو من وهب؟

إنه سبحانه مُستغنٍ، ولن يأخذ من هذا ليعطي ذلك، فكلهم بالنسبة له سواء، لأنه سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، كلهم متساوون.

فلماذا يظلم؟

إن الظلم بالنسبة لله مُحالٌ عقلياً، ومُحالٌ منطقياً.

إن الحق سبحانه ينفي عن نفسه الظلم في قوله:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (فصلت: ٤٦).

ولم يقل: وما ربك بظالم للعبيد.

قالوا: لأن الله لو أباح لنفسه الظلم فلن يكون ظالماً فقط، وسيكون

ظالماً؛ لأن الظلم سيتناسب مع قدرته وقوته.

ونحن قلنا: إن هناك أشياء تسمى مبالغات مثل قولك: فلان أكل. فكلنا آكلون. لكن إذا قلت: فلان أكل أو فلان أكل، فمعناها أنه يبالغ في الأكل، إما بزيادة الكمية التي يأكلها من الطعام، فيبالغ في الحدث في ذاته، وإما أن يأكل خمس مرات في اليوم مثلاً.

إذن: المبالغة في الوصف، إما أن تكون بتضخيم الحدث أو بتكراره. فأنت تقول مثلاً: فلان نجار. أي: أمسك قطعة من الخشب وقُدِّوماً وأخذ ينجر فيها، ولكنه ليس نجاراً؛ لأنه لا يعمل إلا أشياء بسيطة جداً، وليست عنده خبرة النجارة، لكن النجار جرّفته النجارة.

إذن: المبالغة في الحدث تنشأ من أمرين:

من تضخيم الحدث في ذاته، أو من تكراره.

وحين يقول الله تعالى:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

فهو لم يقل: بظلام للعبد، ولكن للعبيد، فلو أنه سبحانه ظلم هذا العبد، وذاك، وغيره... إلخ.

فهذا التكرار في الظلم يتناسب معه كلمة ظلام، وليس كلمة ظالم.. وحاشا لله أن يظلم.

والله سبحانه لم يمنع عن الظلم لأنه لا يستطيع أن يظلم، ولكن لأنه لا ينبغي له أن يكون ظالماً، لأن الظالم يأخذ حق غيره لنفسه، والله يملك كل شيء في الوجود، فلا يمكن أن يظلم ولا ينبغي له.

إذن: عدم ظلمه سبحانه ليس عن ضعفه عن الظلم، ولكن لتزّهِه عنه.

ولذلك يقول الحق تعالى:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وكلمة «ما كان» تختلف عن كلمة «ما ينبغي»، فساعة تسمع «ما ينبغي لك أن تفعل ذلك» فهذا يعني أن لك قدرة على أن تفعل، لكن لا يصح أن تفعل، ولكن حين يُقال: «ما كان لك أن تفعل»، أي: أنك غير مؤهل لفعل هذا مُطلقاً.

ومثال ذلك: أن يقال لفقير جداً: «ما كان لك أن تشتري فيديو»؛ لأنه بحكم فقره غير مؤهل لشراء مثل هذا الجهاز.

لكن حين يُقال لآخر: «ما ينبغي لك أن تشتري فيديو». أي: عنده القدرة على الشراء، لكن القائل له يرى سبباً غير الفقر هو الذي يجب أن يمنع الشراء.

إذن: فهناك قرُق بين نفي الإمكان، ونفي الانبغاء.

والحق سبحانه لا يظلم أحداً ولو مثقال ذرة، إذن: فهو ليس بظلام للعبيد؛ لأنه لو ظلم كلَّ عبد من عباده ذرة لكانت كمية الظلم هائلة لكثرة العباد، ولكن حتى هذه الذرة من الظلم لا تحدث من الله سبحانه؛ لأن الله ليس بظلام للعبيد.

ورسول الله ﷺ يقول:

«إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة، يعطي بها في الدنيا، ويجزي بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزي بها»<sup>(١)</sup>.

### والظالم من البشر جاهل:

والظالم من البشر جاهل، لماذا؟

لأنه قوى الذي ظلمه ولم يضعفه، فالظالم يظلم ليضعف المظلوم أمامه، فنقول له: أنت غبي، قليل الذكاء، لأنك قوّيته على نفسك، وفعلت عكس ما تريد.

ولنوضح ذلك - ولله المثل الأعلى - نحن جميعاً عيال الله، فالواحد منا عندما يكون له أولاد، وجاء ولد من الأولاد وظلم أخاه، فقلّب الوالد يكون مع المظلوم، ويحاول الوالد أن يترضى ابنه المظلوم.

إذن: فالولد الظالم ضرَّ أخاه ضرراً يناسب طفولته، ولكته أعطاه نفعاً يناسب قوة والده، إنه يجهل حقيقة تقويته لأخيه.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٠٨)، وأحمد في مسنده (١٢٣/٣، ١٢٥، ٢٨٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وما دُمنا جميعاً عيال الله، فماذا يفعل الله حين يرى سبحانه واحداً من خلقه يظلم آخر من خلقه؟

لا بُدَّ أن الحق سبحانه يشمل المظلوم برعايته، وهكذا يقوِّي الظالم المظلوم، والظالم بذلك يعلن عن غبائه، فلو كان ذكياً لما ظلم، ولَضُرَّ على عدوه أن يظلمه، ولَقَالَ: إنه لا يستأهل أن أظلمه، لأنه عن طريق ظلمي له سيعطيه الله مكافأة كبرى، وهي أن يجعله في كَنَفِهِ<sup>(١)</sup> ورعايته مباشرة.

وقد نجد واحداً يظلم من أجل نفع عاجل، وينسى هذا الإنسان أنه لن يشرد أبداً ممن خلقه.

ونقول لمثل هذا الإنسان: أنت لن تشرد ممن خلقك، ولكنك شردت من المخلوق وداريت نفسك، وحاولت أن تحقق النفع العاجل لنفسك.

لكن الخالق قيوم، لا تأخذه سنة<sup>(٢)</sup> ولا نوم.

وكأنَّ الحق سبحانه يُطمئننا بأنَّ ننام مِلءَ جُفُوننا، لأنه سبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَمَا اللَّهُ بِرَبِّ ظَلَمَ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨].

لأن الظلم لا ينشأ إلا عن إرادة نفعية بغير حق، أو إرادة الضرر بغير جُرم، والله غني عن ذلك.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨].

ويقول أيضاً:

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].

(١) كنف الله: حفظه ورحمته وبره، والمكانة: المعاونة. وكنت الرجل: خطته وضئته. (لسان العرب - مادة: كنف).

(٢) السنة: النعاس من غير نوم. والوسن: أول النوم. والوسنان: النائم الذي ليس بمستغرق في نومه. (لسان العرب - مادة: وسن).

فنحن الذين نظلم أنفسنا، بأن نُوردها موارد التهلكة والعذاب الذي لا منجاة منه، دون أن نعطيها شيئاً.

فالدنيا - كما قلنا - عالم أغيار، والنعمة التي أنت فيها زائلة عنك، إما أن تتركها بالموت، أو تتركك هي وتزول عنك، وتخرج من الدنيا تحمل أعمالك فقط، كل شيء زال وبقيت ذنوبك تحملها إلى الآخرة. ولذلك، فإن كل من عصي الله وتمرد على دينه قد ظلم نفسه؛ لأنه قاده إلى العذاب الأبدي طمعاً في نفوذ أو مال زال بعد فترة قصيرة، ولم يذم.

فكانه ظلمها بأن حرّمها من نعيم أبدي، وأعطاه شهوة قصيرة عاجلة، لكن الذي يظلم نفسه ظلماً شديداً وبيئاً هو الذي يرتكب إثماً دون أن يأخذ متعة في الدنيا.

فلا هو أخذ متعة دنيا، ولا أخذ متعة آخرة. مثل الذي يتطوع لشهادة الزور، فهو يأخذ عذاباً في الآخرة، ولم يأخذ متعة في الدنيا.

وقد حرّم الحق سبحانه البغي، وهو تجاوز الحد في الظلم، وهو إفساد، لأن الإنسان إذا ما أخرج أي شيء عن صلاحه يُقال: «بغى عليه». فإن حُفرت طريقاً مُمهّداً، فهذا إفساد، وإن أقيت بنفاية<sup>(١)</sup> في بئر يشرب منه الناس، فهذا إفساد وبغي.

وأي شيء قائم على الصلاح فتخرجه عن مهمته وتطراً عليه بما يفسده، فهذا بغي.

والبغي: أعلى مراتب الظلم.

ويقول تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ<sup>(٢)</sup> مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِئْسَ الَّذِي...

[الأعراف: ٣٣].

(١) نفاية الشيء: بقيته وأردؤه. والنفاية بالضم: ما ثقيته من الشيء لردائه. (اللسان - مادة: نفى).

(٢) الفحش والفحشاء والفاحشة: القبيح من القول والفعل، وجمعها الفواحش. وهي كل ما =



فالحق سبحانه يُحرّم أن يبغى أحدٌ على أحدٍ، لا في عِرضه، ولا في نفسه، ولا في ماله<sup>(١)</sup>، ويجب أن نصوص العِرض من الفواحش؛ لأن كل فاحشة قد تأتي بأولاد من حرام، وإن لم تأت فهي تُهدِر العِرض، والمطلوب صيانته.

وكذلك لا يبغى أحد على حياة إنسان بأن يهدمها بالقتل<sup>(٢)</sup>.

والحق سبحانه يصون المال فيمنع عنه البغي، فلا يأخذ أحد ثمرة عمل آخر وكفاحه عُدواناً وظلماً<sup>(٣)</sup>.

### مظاهر البغي:

ومظاهر البغي كثيرة:

فمن البغي أن تأخذ سُلطة قسراً بغير حق، ولكن هناك من يأخذ سلطة قسراً وقهراً بحق.

فإن كنت - على سبيل المثال - تركب سفينة، ثم قامت الرياح والزواج وأنت أمهر في قيادتها من ربانها، أترك الربان يقودها، وربما غرقت بمن فيها، أم تضرب على يده وتُمسك بالدفة وتديرها لتنقذها ومن فيها؟ إنك في هذه الحالة تكون قد أخذت القيادة بحق صيانة أرواح الناس، وهذا بغي بحق، وهو يختلف عن البغي بغير الحق.

= يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي، قال ابن الأثير: وكثيراً ما ترد الفاحشة بمعنى الزنا. (لسان العرب - مادة: فحش).

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يَخُونه ولا يكذبه ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام، عرضه وماله ودمه، التقوى ها هنا، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم». أخرجه بهذا اللفظ الترمذي في سننه (١٩٢٧) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يزال المؤمن في فسحة من دينه، ما لم يُصب دماً حراماً». أخرجه أحمد في مسنده (٩٤/٢)، والبخاري في صحيحه (٦٨٦٢).

(٣) عن خولة بنت عامر الأنصارية قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن رجلاً يتخوضون في مال الله بغير حق، فلهم النار يوم القيامة». أخرجه البخاري في صحيحه (٣١١٨)، وينحده أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٤/٦، ٣٧٨، ٤١٠).

وحتى تُفَرَّق بين البغي بحقّ والبغي بغير حقّ، نقول:

إن هذا يظهر ويتضح عندما تأخذ مال السفية<sup>(١)</sup> منه للحفاظ عليه وصيافته وتسميره له، فنكون قد أخذنا حقاً من صاحبه رعاية لهذا الحق، فهو وإن كان في ظاهره بغيّاً على صاحب الحق إلا أنه كان لصالحه وللصالح العام.

فهذا بغي بحقّ، أو أنه سُمّي بغيّاً، لأنه جاء على صورة استلاب الحق من صاحبه ظُلماً.

ويعطينا رسول الله ﷺ صورة البغي الممثلة في الاعتداء بالفساد على الأمر الصالح، فيقول ﷺ:

«أسرع الخير ثواباً: البرّ وصلّة الرحم. وأسرع الشرّ عقوبة: البغي وقطيعة الرحم»<sup>(٢)</sup>.

فالباعي إنما يصنع خللاً في توازن المجتمع، والذي يبغى إنما يأخذ حقّ الغير، ليستمتع بنتائج من غير كدّه وعمله، ويتحول إلى إنسان يحترف فرض الإتاوات على الناس، ويكسل عن أيّ عمل غير ذلك.

وأنت ترى ذلك في أبسط المواقع والأحياء، حين يحترف بعض ممّن يغتزون بقوتهم الجسدية، وقد تحوّلوا إلى فتوات يستأجرهم البعض لإيذاء الآخرين، والواحد من هؤلاء إنما احتترف الأكل من غير بذل جهد في عمل شريف.

وقد ضرب الحق سبحانه المثل بقارون في البغي، فقال تعالى:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مَوْسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُوزِ مَا إِنَّ مَفَاحِمَهُ لَسَمْوًا<sup>(٣)</sup>

(١) السفية: الخفيف العقل، الجاهل، الأحمق، الذي لا يحسن سياسة وإدارة ماله وغيره من شؤونه. (راجع: لسان العرب - مادة: سفه)، ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَزُولُ السُّفَهَاءُ أَمْوَالَكُمُ إِلَىٰ حِمْلِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا أَرْزَاقٌ مِنْ يَدَيْهِمْ وَأَكْسُومُهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾. «وَأَتَيْنَا الْمُنَافِقِينَ حَقًّا إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ إِنْ زَكَاوا وَبَدَا لَهُمْ بَيِّنَاتٌ أَنْ يَسْكُونُوا فَمَا كَانَ عَلَيْكُمْ لَبُؤٌ بِمَا فَتَوْنَا بَيْنَهُمْ وَمِنَ الْكُفْرِ أَكْبَرُ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بَأْسًا خَبِيرًا» [النساء: ١٥، ١٦].

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٢١٢) من حديث عائشة رضي الله عنها. قال البوصيري في الزوائد: «في إسناده صالح بن موسى، وهو ضعيف».

(٣) ناء بحفلة ينوء: نهض بجهد ومشقة. وناء الحمل بالدابة: أجهدها وثقل عليها وأمالها. (اللسان - مادة: نوا).

بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿١٧٦﴾ [الفصص: ١٧٦].

فضرب الحق سبحانه به المثل، لأنه كان كثير المال بصورة لم يعهد لها الناس، فهو فتوة الأغنياء وأصحاب المال والعجاء.

وقارون كان عنده المال الكثير الذي يستطيع بسطوته أن يظلم الناس ويبغي عليهم، والبغي إما أن يكون بالاستيلاء على حقوق الناس، وإما بالاحتقار والازدراء<sup>(١)</sup>، وإما بالبطر<sup>(٢)</sup> عليهم.

ويعطينا الحق سبحانه نوحاً عليه السلام مع قومه، مثلاً على أن الازدراء نوع من الظلم، فقال تعالى:

﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنَّ الَّذِينَ أَفْلَحُوا﴾ [هود: ٣١].

فنوح عليه السلام لن يطرد من آمن من الضعاف الذين تزدرهم وتحقرهم وتهكم عليهم عيون هذا المملأ الكافر؛ لأن نوحاً عليه السلام يخشى سؤال الله - عز وجل - له إن سُدَّ في وجوه الضعاف أبواب الإيمان.

فأوضح نوح عليه السلام أنه لو طرد من يقال عنهم: «أراذل» لكان معنى ذلك أنه يعلم النوايا، ونوح عليه السلام يعلم يقيناً أن الله هو الأعلم بما في النفوس، لذلك لا يضع نوح نفسه في موضع الظلم لا لنفسه ولا لغيره.

فالبغي - إذن - هو عمل من يفسد على الناس حركة الحياة؛ لأن من يقع عليهم ظلم البغي، إنما يزهدون في الكد والعمل الشريف الطاهر. وإذا ما زهد الناس في الكد والعمل الشريف تعطلت حركة الحياة، وتعطلت مصالح البشر، بل إن مصالح الظالم نفسها تعطل.

(١) الازدراء: الاحتقار والانتقاص والعيب. (اللسان - مادة: زوي) ومنه قوله تعالى عن نوح مع قومه: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنَّ الَّذِينَ أَفْلَحُوا﴾ [هود: ٣١].

(٢) البطر: الطغيان في النعمة. والبطر: شدة المرح. ويطر الحق: أن لا يراه حقاً ويتكبر عن قبوله. (لسان العرب - مادة: بطر).

ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿ فَلَمَّا أَجَلُهُمْ إِذَا هُمْ يَتَوْنُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَبِطِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْكَافِرَ الدُّنْيَا... ﴾ [يونس: ٢٣].

وهنا يُبين الحق سبحانه وكأنه يخاطب الباغي:

يا مَنْ تريد أن تأخذ حقَّ غيرك، اعلم أن قصارى ما يعطيك أخذ هذا الحق هو بعض من متاع الدنيا، ثم تُجازى من بعد ذلك بنار أبدية.

وأنت إن قارنتَ زمن المتعة المغتصبة الناتجة عن البغي بزمن العقاب عليها لوجدتَ أن المتعة رخيصة هيّنة بالنسبة إلى العقاب الذي سوف تناله عليها، ولا تأخذ عمرك في الدنيا قياساً على عمر الدنيا نفسها؛ لأن الحق سبحانه قد يشاء أن يجعلَ عمر الدنيا عشرين مليوناً من السنوات، لكن عمرك فيها محدود.

فاربأوا<sup>(١)</sup> بأنفسكم، وافهموا أن متاع الدنيا قليل، إن كان هذا المتاع نتيجة ظلمكم لأنفسكم؛ لأن نتيجة هذا الظلم إنما تقع عليكم؛ لأن مُقتضى ما يعطيكم هذا الظلم من المتعة والنعمة هو أمر محدود بحياتكم في الدنيا.

وحياتكم فيها محدودة، ولا يظُنُّ الواحد منكم أن عمره هو عمر البشرية في الدنيا، ولكن ليقسُ كلُّ واحد منكم عمره في الدنيا، وهو محدود. وهنا يؤكد الحق سبحانه:

﴿ إِنَّمَا بِغَبِطِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ [يونس: ٢٣].

وقد يتمثل جزاء البغي في أن يشاء الحق سبحانه ألا يموت الظالم إلا بعد أن يرى مظلومه في خيرٍ ممَّا أخذ منه.

ولذلك أقول دائماً: لو عَلِمَ الظالم ما ادَّخره الله للمظلوم من الخير، لَضَنَّ عليه بالظلم.

وعلى فَرَض أن الظالم يتمتع بظُلْمه وهو من متاع الدنيا القليل، نجد الحق سبحانه يقول:

﴿ ثُمَّ إِنَّمَا مَرْحَمَتُكُمْ ﴾ [يونس: ٢٣].

(١) اربأوا: ارتفعوا واحذروا واتقوا. (اللسان - مادة: ربأ).

وحين نرجع إلى الله تعالى فلا ظلم أبداً؛ لأن أحدكم لن يظلم أو يُظلم، فكل منكم سوف يلقى ما يُنبئه به الله سبحانه إن ثواباً أو عقاباً، ومُضداً لقول الحق سبحانه:

﴿ ثُمَّ إِنَّا مَرَجَعَكُم مِّنْهُنَّ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٢٣].

وقد جاء الخبر عن نبيّ الجزء من قبل أن يقع؛ ليعلم الجميع أن لكل فعل مُقابلاً من ثواب أو عقاب، كما أن في ذكر النبا مُقدماً تقرّياً لمن يظلمون أنفسهم بالبغي.

والحق سبحانه لا يظلم أحداً، ومُضداً هذا قوله تعالى:

﴿ إِنْ أَنَّى لَا يَظْلِمُ النَّاسُ شَيْئًا وَلَكِنَّ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٤].

أي: أن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم، ومن الظلم جُحْدُ الحق، وهذا هو الظلم الأعلى، ومن الظلم أن يُعطي الإنسان نفسه شهوة عاجلة، ليدوق من بعد ذلك عذاباً آجلاً، وهو بذلك يحرم نفسه من النعيم المقيم. وهو حين يظلم نفسه يكون قد افتقد القدرة على قياس عمره في الدنيا، فالعمر مهما طال قصير، فما دام الشيء له نهاية فهو قصير.

ومن الظلم أيضاً أن يستكثر الظالم نعمةً عند المظلوم، فيريد أن يأخذها

منه.

ومثال هذا ما قصّه الحق سبحانه في قرآنه:

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ خَبْرُ الْخَصَمِ إِذْ سَارُوا بِالْحَرَابِ • إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ يَتَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَتَكُم مِّنَّا بِالْحَقِّ وَلَا يُنَاطُ <sup>(١)</sup> وَأَهْدِنَا إِنَّا سَوَاءُ الْفَرِيطِ • إِنَّ هَذَا آيٌ لِّمَن نَّعْمُ وَلَمْ نَعْمُ وَلِي نَجْمَةٍ وَجِدَّةٌ فَقَالَ أَكْفَلِيهَا وَعَزَّنِي <sup>(٢)</sup> فِي الْخِطَابِ • قَالَ لَقَدْ طَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَحِيكَ إِنَّا نَحْنُ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْمَلَأَةِ يَتَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقِيلَ لَهُمْ ﴾ [ص: ٢١ - ٢٤].

(١) الشطط: مجاوزة القدر في كل شيء. والشطط: الجور في الحكم. وشطّ في سلطته وفي حكمه: جاوز القدر وتباعد عن الحق، وجار في قضيته (اللسان - مادة: شطط).

(٢) عز: غلب وقهر. وقال السيوطي في «الدر المنثور» (١٦٢/٧): «أخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله: ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٣]، قال: إذا تكلم كان أبلغ مني، وإذا دعا كان أكثر».

والخلطاء هم الشركاء، فكثير منهم يبغي بعضهم على بعض، ويظلم بعضهم بعضاً، مع أنهم أقبلوا على الشركة لِحُبِّ بينهم .  
ولذلك فإن رسول الله ﷺ يقول:

« إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، فلعلّ بعضكم أن يكون ألحن <sup>(١)</sup> بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها » <sup>(٢)</sup> .

إن الرسول ﷺ يُعلمنا أنه بشر، أي: أنه لا يملك علم الغيب ومداخل المسائل، وعندما يرفع المسلمون إليه قضاياهم فقد يكون أحدهم أكثر قدرة على الفصاحة وذلاقة اللسان، ويستطيع أن يقلب الباطل حقاً، والآخر قليل الحيلة، فيحكم النبي بمقتضى البيّنة القضائية، ولكن الأمر الواقع يتنافى مع تسلسل الحق .

لذلك يعلمنا أنه بشرٌ، وأنا حين نختصم إليه يجب ألاّ يستخدم واحد منا ذلاقة <sup>(٣)</sup> اللسان في أخذ ما ليس له، لأنه حتى لو أخذ شيئاً ليس له، بحكم من الرسول ﷺ، فليعلم أنه يأخذ قطعة من الجحيم .

لذلك أقول: على كل واحد أن يُغربل إيمانه، وينظر هل حياته في أعواض الأموال وأعواض التجارة، وأعواض المبادلات مستوية أو غير مستوية؟

فإن لم تكن مستوية، فعليه أن يفكر فيها قليلاً حتى يُعطي كل ذي حق حقه .

واعلموا أن الله تعالى يسمع ويرى، وأن الله خبير لا تخفى عليه خافية، فلا تخذعوا أنفسكم وتحسبوا أنكم إن أخفيتم شيئاً عن عيون المخلوق قد يخفى

(١) لحن الرجل فهو لحن إذا فهم وفطن لما لا يظن له غيره . ومعنى ألحن بحجته: أي أفطن لها وأجدل . وأراد أن بعضكم يكون أعرف بالحجة وأفطن لها من غيره . (اللسان - مادة: لحن) .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٦٨٠)، وكذا مسلم في صحيحه (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

(٣) الذليق: الفصيح اللسان البليغ . (لسان العرب - مادة: ذلق) .

على الله أبداً، فلن يخفى شيء عن عيون الخالق؛ لأنكم إن عميتم على قضاء الأرض، فلن تعموا على قضاء السماء.

يقول الحق سبحانه:

﴿الرَّيَالُومَاءُ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنْتَ اللَّهُ عَلَنُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

فَعِلْمُ اللَّهِ تعالى ليس مقصوراً على معرفة أمورهم هم، بل يعلم الله سرهم ونجواهم، لأن صفته القيومية، وأنه علّام الغيوب، يعلم غيب هذا، وغيب هذا، وغيب هذا.

وما هو السر؟ وما هي النجوى؟

السر: هو ما تكتمه في نفسك ولا تُطلع عليه أحداً، فليس السر هو ما تُسرّ به للغير؛ لأن هذه هي النجوى، وأضلّ النجوى البُعد.

وحين يرغب إنسان أن يُكلّم أحداً بكلام لا يسمعه غيرهما، فهو يستأذنه في الابتعاد عن بقية الجلوس ليتكلم معه كما يريد، أو يُخفيض من صوته فلا يسمعه سوى الإنسان الذي يريد أن يهمس له بكلمة، ولا يسمعا أحد آخر.

ولذلك سمّوها «المناجاة»، وهي كلام لا يسمعه القريب، لأنك خفضت صوتك خفّضاً يخفى على القريب، فكأنه صار بعيداً.

إذن: فالسر هو ما احتفظت به في نفسك. والنجوى: هو ما أسررت به للغير بحيث لا يعلمه من يجالسك.

يقول تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاقِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادُسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ كَانُوا ظَنَنَّاهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

ولا يمكن أن يكون الحق سبحانه وتعالى ظالماً يستكثر نعم عباده؛ لأنه مُنَزَّه عن ذلك، فضلاً عن أن خلقه ليس عندهم نعم يريدونها، فهو الذي أعطاهم لهم، ولذلك لا يأتي منه سبحانه أي ظلم، وإن جاء الظلم فهو من الإنسان لنفسه.



وقد عدّد لنا الحق سبحانه أوجهاً كثيرة للظلم البين، الذي هو أعظم الظلم، فقال سبحانه:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ نَمُنَّ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَمَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيًا<sup>(١١)</sup> وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

فعُمار المساجد وزُوارها الدائمون على الصلاة فيها هم الذين يروون نور الله، فكأن المساجد وهي بيوت الله هي أماكن تلقى النور المعنوي من عند الله سبحانه وتعالى، وهو النور الذي يعطينا ارتقاء الروح.

فالمساجد هي مطالع أنوار الله تعالى، وهي التي ينزل فيها النور على النور الذي يصلح الحياة الدنيا ويرتقي بها، لأن أنوار الله تدخل القلوب فتجعلها تطمئن، وتدخل النفوس فتجعلها تحس بالرضا والأمن.

فنحن في المساجد إنما نعيش في حضرة الحق تبارك وتعالى، نلتقى منه التجليات والقبوضات التي تعالج نفوسنا أكثر مما يعالجها أبرع أطباء العالم.

وأنت في بيت الله تكون في ضيافة الله، وأنت تعلم أنه إن جاءك أحد في بيتك على غير دعوة فأنت تكرمه، فإذا كان المجيء على موعد فكرمك يكون كبيراً، فما بالنا بكرم من خلقنا جميعاً؟

إن الحق سبحانه وتعالى يجزيك من فيض كرمه من ساعة أن تنوي زيارته في بيته، فأنت في صلاة منذ أن تبدأ في الرضوء في بيتك استعداداً للصلاة في المسجد، لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يطيل عليك نعمة أن تكون في حضرته<sup>(٢)</sup>.

فبيته مفتوح دائماً حين يدعوك للصلوات الخمس، فهذا أمر ضروري، ولكن بين الصلوات الخمس إن أردت لقاء الله فسبحانه يلقاك في أي وقت،

(١) الخزري: الفضيحة والهوان. وقد يكون الخزري بمعنى الهلاك والوقوع في بلية. (لسان العرب - مادة: خزي).

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من تطهر في بيته، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله، ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطواته إحداها تحط خطبته، والأخرى ترفع درجة» أخرجه مسلم في صحيحه (٦٦٦).



وتدعوه بما تشاء، وتُطيل في حَضْرته كما تريد، ولا يقول لك أحد: إن الزيارة قد انتهت.

فإذا أتى قوم يجترثون على مساجد الله، ويمنعون أن يُذكر اسم الله فيها، فمعنى ذلك أن المؤمنين القائمين على هذه المساجد ضعفاء الإيمان، ضعفاء الدين، تجرأ عليهم أعداؤهم.

لأنهم لو كانوا أقوياء ما كان يجرؤ عدوهم على أن يمنع ذكر اسم الله في مساجد الله، أو أن يسعى إلى خرابها، فتهدم ولا تُقام فيها صلاة.

ولكن ساعةً يوجد من يخرّب بيتاً من بيوت الله يهبُ الناس لمنعه والضرب على يده يكون الإيمان قوياً، فإن تركوه فقد هان المؤمنون على عدوهم... لماذا؟

لأن الظالم الذي يريد أن يُطفئ مكان إشعاع نور الله لخلقهِ، يعيش في حركة الشر في الوجود التي تقوى وتشتد كلما استطاع غير المؤمنين أن يمنعوا ذكر اسم الله في بيته وأن يخرّبوه.

فلا يوجد أظلم ممن يمنع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه، أي: أن هذا هو الظلم العظيم.

وفي الوقت نفسه، فإن المؤمنين الذين سكتوا على هذا وتخاذلوا عن نُصرة دين الله والدفاع عن بيوت الله، سيكون لهم أيضاً عذاب أليم.

إنني أحذر كل مؤمن أن يتخاذل أو يضعف أمام أولئك الذين يحاولون أن يمنعوا ذكر الله في مساجده، لأنه في هذه الحالة يكون مُرتكباً لذنبهم نفسه، وربما أكثر، ولا يتركه الله يوم القيامة، بل يسوقه إلى النار.

ويقول الحق سبحانه عن وَجْهِ آخر من أوجه الظُّلم:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

فقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ...﴾ [الأنعام: ٢١].

يأتي على صيغة السؤال الذي لن تكون إجابته إلا الإقرار، ولا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب؛ لأنه أولاً ظلم نفسه، وظلم أمته.

وأول ظلم النفس أن يرتضي حياة زائلة، وأن يترك حياة أبدية. وأما

ظَلَمَهُ لِلنَّاسِ فَلَا تَه سِيَاخِذْ أَوْزَارَ مَا يَفْعَلُونَ، لِأَنَّهُ قَدْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا.

﴿أَوْ كَذَبَ يَكْتُمُهُ...﴾ [الأنعام: ٢١].

أي: قَوْلُ اللَّهِ مَا لَمْ يَقُلْهُ، أَوْ كَذَبَ مَا قَالَهُ اللَّهُ، وَكَيْلَا الْأَمْرَيْنِ مُسَاوٍ لِلْآخَرِ.

وكيف يفترى إنسانُ الكذبَ على الله؟

كَأَن يُبْلَغَ النَّاسَ وَيُدَّعَى وَيَقُولُ: أَنَا نَبِيٌّ وَهُوَ لَيْسَ كَذَلِكَ. هُنَا تَكُونُ الْفِرْيَةُ عَلَى اللَّهِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ أَنَّهُ يَكْذِبُ عَلَى النَّاسِ، لَا، إِنَّهُ يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ، لِأَنَّهُ أَبْلَغَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَهُ وَهُوَ لَمْ يَبْعَثْهُ.

وَالِافْتِرَاءُ: كَذِبٌ مُتَعَمِّدٌ مَقْصُودٌ، وَيَنْطَبِقُ ذَلِكَ عَلَى النَّبَوَاتِ الَّتِي ادَّعَيْتْ، مِنْ مِثْلِ مُسَيِّلِمَةَ الْكَذَابِ، سَجَّاحَ، طَلِيحَةَ الْأَسَدِيِّ، الْأَسْوَدَ الْعَنَسِيَّ.

كُلُّ هَؤُلَاءِ ادَّعَوْا النَّبُوَّةَ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَسْأَلِهِمْ أَحَدٌ عَنِ الْمَعْجَزَةِ الدَّالَّةِ عَلَى نُبُوَّتِهِمْ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عِنْدَمَا أَعْلَنَ نُبُوَّتَهُ جَاءَ بِمَا يُخَفِّفُ عَنِ النَّاسِ أَحْكَامَ الدِّينِ.

فَوَاحِدٌ قَالَ: أَنَا أَخَفَّفْتُ الصَّلَاةَ، وَالزَّكَاةَ لَا دَاعِيَ لَهَا. لِذَلِكَ تَبِعَهُمْ كُلُّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَخَفَّفَ مِنْ أَوَامِرِ الدِّينِ وَتَوَاهِيهِ، مُوَهِّمًا نَفْسَهُ بِأَنَّهُ مُتَدَيِّنٌ، دُونَ أَنْ يَلْتَزِمَ بِالتَّزَامَاتِ التَّدْيِينِ.

وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ أَصْحَابَ النُّبَوَاتِ الْكَاذِبَةِ، وَالِادِّعَاءَاتِ الْبَاطِلَةَ يَجِدُونَ لَهُمْ أَنْصَارًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ، فَالوَاحِدُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْآتِبَاعِ قَدْ يَكُونُ مُتَّقِفًا ثُمَّ يُصَدِّقُ دَجَالًا يَدَّعِي النَّبُوَّةَ.

وَتَسْأَلُ التَّابِعَ لِلدَّجَالِ وَتَقُولُ لَهُ: أَسَأَلْتُ مُدَّعِي النَّبُوَّةَ هَذَا، مَا مَعْجَزَتُكَ؟ وَهَذَا أَوَّلُ شَرْطٍ فِي النَّبُوَّةِ، وَلَمْ نَجِدْ أَحَدًا سَأَلَ هَذَا السُّؤَالَ قَطُّ، لِمَاذَا؟

لِأَنَّ التَّدْيِينَ فِطْرَةٌ فِي النَّفْسِ، وَلَكِنْ الَّذِي يُصْعَبُ التَّدْيِينَ هُوَ الْإِلْتِزَامَاتُ الَّتِي يَفْرُضُهَا التَّدْيِينَ، وَعِنْدَمَا يَرَى التَّابِعُ الضَّعِيفُ النَّفْسِ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يُرِيحُهُ مِنَ الْإِلْتِزَامَاتِ الدِّينِيَّةِ، وَيُفْقَهُمَهُ أَنَّهُ عَلَى دِينٍ، وَيَقْلُلُ الْإِلْتِزَامَاتِ عَلَيْهِ، لِذَلِكَ يَتَّبِعُهُ ضِعَافَ النَّفُوسِ، وَتَصْبِحُ الْمَسْأَلَةُ فَوْضَى.

لذلك يقول سبحانه:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ<sup>(١)</sup> بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وانكم تتعمدون الكذب على الله لإضلال الناس، والحق سبحانه لا يهدي من يظلم نفسه، ويظلم الناس.

ويقول تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالْعِصْدِ إِذْ جَاءَهُ الْبَيِّنَاتُ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى<sup>(٢)</sup> لِلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٢].

فلا أظلم ممن يكذب بالصدق، لأن تكذيب الصدق ينقل القضايا إلى نقيضها، وقد يحدث أن تكذب على الناس لأنهم لا يعرفون الحقيقة، ولكن أن تكذب على الله الذي يعرف الحقيقة سرها وعلايتها، فهذا هو الظلم لنفسك بعينه.

والظالم على أنواع.. ظالم في شيء أعلى أي في القمة، وظالم في مطلوب القمة، والظالم في القمة هو الذي يجعل لله شريكاً.

ولذلك قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ...﴾ [القمان: ١٣].

وعلاقة الشرك بالظلم أنك جئت بمن لم يخلق ومن لم يرزق شريكاً لمن خلق ورزق، لذلك كان هذا ظلم القمة، والظلم الآخر هو الظلم فيما شرعت القمة، بأن أخذتم حقوق الناس واستبختموها.

(١) الغمرات: جمع غمرة، وهي الشدة. وغمرات الموت والحرب: شدائدها. (لسان العرب - مادة: غمر).

(٢) عذاب الهون: الهوان الدائم الشديد. قاله ابن عباس. ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٣٢٢).

(٣) المثنوى: الموضع الذي يقيم به. ثوى المكان، وثوى به: حل به، وأقام فيه، واستقر به. (القاموس الفوري ١/١١٣).

ففي كِلْتَا الحالتين لا يقع الظلم على الله سبحانه وتعالى، ولكن على نفسك . . لماذا؟

لأنك آمنْتَ بالله أو لم تؤمن، سيظل هو الله القوي القادر العزيز، لن يُنقص إيمانك أو عدم إيمانك من مُلكه شيئاً، ثم تأتي يوم القيامة فيُعَذِّبك، فكانَ الظلم وقع عليك .

وإذا أخذتَ حقوقَ الناس فقد تتمتع بها أياماً أو أسابيع أو سنوات، ثم تموت وتركها وتأخذ العذاب، فكانك ظلمتَ نفسك ولم تأخذ شيئاً .  
لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٥٧] .

فَظَلَمَ الناس يعود على أنفسهم، لأنه لا أحد من خُلق الله يستطيع أن يظلم الله سبحانه وتعالى .

وأعلى مراتب الظلم هو الشرك بالله، وهو الظلم العظيم، ذلك أن الإنسان حين يظلم إنساناً آخر، ويأخذ منه شيئاً ليعطيه لآخر، فهل هناك إنسان يقدر على أن يأخذ من الله شيئاً؟

لا، فالإنسان لا يستطيع أن يظلم الله، لكنه ينال عقوبة الشرك، وهذا ظلم خائب للنفس، والذي يشرك بالله لا يأخذ إلا الخسارة، وذلك هو كُلُّ الخيبة .

لأن الظلم حينما يُحقَّق للظالم نفعاً فهو ظلم هين، ولكن الظلم العظيم هو أن يشرك إنساناً بالله، ولا يأخذ إلا العقاب الصارم، فإذا كان المشرك يتأبى على منهج الله في الأشياء، فهل يجروء على أن يتأبى على قدريات الله غير الاختيارية فيه كالموت مثلاً؟

والحق سبحانه يأمر الإنسان بالإيمان، ومتعلقات الإيمان من شهادة بوحْدانيته وإيمان برسله وكتبه واليوم الآخر وبأمره بالإسلام، ومتعلقات الإسلام وأركانه من إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً .

والمشرك يتأبى على الإيمان والتكاليف، فهل يجروء على التأبى على المرض أو الموت؟

لا، لذلك فهو يظلم نفسه ظُلماً خائباً، والحق سبحانه لا يهديه؛ لأن معنى الهداية هو أن يجد الإنسان مَنْ يَدُلُّه على الطريق الموصِّل للغاية، فهداه أي دَلَّه على الطريق الموصِّل للغاية.

ولا يتجسَّى سبحانه على خَلْقِه فلا يهديهم، بل الذين ظلموا أنفسهم ولم يؤمنوا هم الذين لا ينالون عناية الحق سبحانه وتعالى باختيارهم. فقيمة الظلم هو الشرك بالله سبحانه، ثم بعد ذلك يتنزَّل إلى الظلم في الكبائر، ثم في الصغائر.

فالحقوق تختلف في مكانتها، فهناك حقُّ أعلى، وحقُّ أوسط، وحقُّ أدنى، فإذا جئت للحق الأدنى في أن تنقل الألوهية لغير الله سبحانه وتعالى، فهذا قيمة الظلم.

والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّ الشِّرْكَ أَظْلَمُ عَظِيمٌ...﴾ القمان: ١٣.

لأن في هذا نقل الألوهية من الله سبحانه إلى غيره، ويا ليت غيره كان صاحب دعوة إلى نفسه، بل إن الظالم تطوَّع من نفسه بذلك، واتخذ من دون الله شريكاً لله، وفي هذا تطوَّع بالظلم بغير مُدْع.

وهَبَ أن الله تعالى قال: لا إله إلا أنا، فيما أن القضية صحيحة، وإما أنها غَيْرُ ذلك، فإن افترض أحد - معاذ الله - عدم صحتها، فالإله الثاني كان يجب أن يعلن عن نفسه، ولا يترك غيره يسمع له ويُعلن عنه، وإلا كان إلهاً أصمَّ غافلاً.

ولكن أحداً لم يعلن ألوهيته غير الله سبحانه؛ لذلك تثبت الألوهية الواحدة للإله الحق سبحانه وتعالى.

وقد بيَّن لنا الحق سبحانه: لا إله إلا أنا، أنا الخالق، أنا الرازق. ولم يصدر عن أحد آخر دَعْوَى بأنه صاحب تلك الأعمال. إذن: فقد صحَّت الدعوى في أنه لا إله إلا الله.

وما دُمنا قد تحدثنا عن الظلم والظالمين، وأن الله حَرَّمه على نفسه، وجعله بيننا مُحَرَّماً، فلا بُدَّ أن نتحدث عن العَدْل الذي أمر به الحق سبحانه.

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

لأن مجتمعاً ينفذ هذا هو مجتمع يصل صاحب الحق فيه إلى حقه، ويتنازل صاحب الفضل عن حقه، وتستطرق النعمة إلى رحم كل إنسان، وإن مجتمعاً فيه هذا للمجتمع سعيد، يسود فيه الحب والإيمان والإحسان.

ويقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ (١) سَنَآئِهِ (٢) وَلَا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

وحين يكون الواحد مئاً قواماً لله يكون قد استغل حركة وجوده لخير خلق الله، وهذا العمل مطلوب منك، ولا يكفي أن تكون حركتك مَحْصُورَة في ذلك، بل يجب أن تمتد أيضاً حركة حياتك لتكون شاهداً بالعدل، وكذلك توجه للعدل من تحدّثه نفسه أن ينحرف.

وحين تكون قواماً لله فهذا أمر حسن، وعليك أن تحاول إقناع غيرك بأن يكون قيامه لله، بأن تكون شاهداً بالقسط والعدل.

وحين تكون شاهداً بالقسط والعدل لا يتمادى ظالم في ظلمه، فالذي يجعل الظالم يشدد، ويستشري ظلمه، ويتفاقم شره هو أنه يجد من يُدَلِّسُون على العدالة، ويسترُونَ ويخفون العيوب، ويخادعون الناس.

لكن لو وجد الإنسان الذي ينير الطريق أمام العدالة لما وجد ظلم، لكن الظالم يحب من يُدَلِّس عليه، فيقول لنفسه: إن فلاناً ارتكب جريمة مثل جريمتي ونال البراءة.

(١) لا يجرمنكم: لا يحملنكم بغض قوم أن تعندوا. وقيل: لا يدخلنكم في الجرم. (لسان العرب - مادة: جرم).

(٢) الشنائة: البغض. شئ الشيء وشنأه أيضاً: أبغضه. وشنأوا: تباغضوا. والشانئ: الميغض. (لسان العرب - مادة: شنأ).

وتدليس الشهادة يقود إلى خراب المجتمعات<sup>(١)</sup>، ولو أن المجتمع حينما يرى أن شهادة أفراده هي شهادة بالقسط وشهادة بالعدل، فإن كل فرد في المجتمع إذا همّ بظلم يرتدع قبل أن يفعل الظلم، ولكان الظالم ينال عقابه، ويصير مثلاً لارتداع غيره.

والمؤمن مطالب أولاً بالقيام لله بإصلاح ذاته، ومطالب ثانياً أن يشهد بالقسط والعدل لإصلاح غيره.

وإياكم أن تدخلوا الهوى في مقياس العدل. وهب أن المسألة تتعلق بعدوكم أو بخصومكم، فالعدل هنا أكثر أهمية وأكثر وجوباً.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا...﴾ [المائدة: ٨].

أي: لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا، فتعدوا عليهم، فمن له حق يجب أن يأخذه، ولا سيكون البغض لصالح عدوكم، لأن الله سيعاقب المؤمن لو أدخل الهوى والبغض في إقامة الميزان العادل، فتحكيم البغض والعداء والهوى يكون لصالح الخصوم.

ويضيف الحق سبحانه:

﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ...﴾ [المائدة: ٨].

والعدالة حين تُطلب مع الخصم هي تقيع لذلك الخصم؛ لأنه خالف الإيمان، ومن المؤكد أن الخصم يقول لنفسه: إن عدالة هذا المسلم لم تمنعه من أن يقول الحق، ولا بُد أن عقيدته تجعل منه إنساناً قوياً، وأن دينه الذي أمره بذلك هو نغم الدين.

إذن: ساعة تحكم أيها المؤمن بالعدل لخصمك فأنت تُقرّعه لأنه ليس مؤمناً، لكن لو رأى خصمك أنك قد جرت ولم تذهب إلى الحق، فأنت بذلك تُشجّعه على أن يبقى كافراً، لأنه سيعرف أنك تتبع الهوى.

(١) عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أتنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، وكان متكئاً فجلس، فقال: «ألا وقول الزور»، فما زال يكررها حتى قلنا: «لبيته سكت». أخرجه مسلم في صحيحه (٨٧) كتاب الإيمان، وكذا البخاري في صحيحه (٢٦٥٤، ٥٩٧٦، ٦٢٧٣).



أما إذا رآك وأنت تقف موقفاً يُرضي الله مع أنه خصم لك، فهو يستدل من ذلك على أن العقيدة التي آمنت بها هي الحق، وأنت تقيم الحق حتى في أعدائك.

فإن كرهت إنساناً فلا يصح أن تظلمه، والحق سبحانه لم يُحرّم البُغض؛ لأنه مسألة عاطفية، ولكن التحريم ينحصر في الإقدام على عمل يُخلّ بميزان العدل مع مَنْ تكرهه، ويجب أن يؤمن الإنسان إيماناً جازماً بأن مَنْ ظلمه بمعصية، فلا يجازيه الإنسان إلا بطاعة الله.

إذن: قال الله سبحانه وتعالى لم يَنه عن الحب أو الكُره، ولكنه نهانا عن أن نظلم مَنْ نكره، أو نجامل مَنْ نحب على حساب الحق والعدل.

ويعطينا سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه صورة حيّة لهذا، فقد قتل أبو مريم الحنفي<sup>(١)</sup> زيد بن الخطاب<sup>(٢)</sup> شقيق سيدنا عمر في معركة اليمامة، ثم دخل في الإسلام، فكان كلما مرّ أمام سيدنا عمر قال له: اصرف وجهك بعيداً عني، فإني لا أحبك.

فقال له أبو مريم الحنفي: أو عدم حُبِّك لي يمنعني حقاً من حقوقي؟ قال: لا. فقال الرجل: إنما يبكي على الحب النساء.

إذن: أحب مَنْ شئت، وأبغض مَنْ شئت، ولكن إياك أن تظلم الناس لمن أحببت، أو تظلم مَنْ أبغضت. ولذلك يقول تعالى:

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ...﴾ (الأنعام: ١٥٢).

إذا ما تعودت العدل في قولك ألفتَه وأبغضتَ به، وأحببتَه حتى في أعمالك الخاصة الأخرى.

(١) هو: إياس بن صبيح بن عبد عمرو الحنفي، يكنى أبا مريم. قال ابن سعد: كان من أصحاب مسيلمة ثم تاب وحسن إسلامه وولي قضاء البصرة في زمن عمر. وذكر عمر بن شبة أن فتح رامهرمز كان على يديه. (الإصابة في تمييز أسماء الصحابة ١/ ١٢٠ - ١٨٦/ ٧).

(٢) هو أخو عمر بن الخطاب، أمه أسماء بنت وهب، من بني أسد، وكان أسن من عمر وأسلم قبله وشهد بدرأ والمشاهد واستشهد باليمامة، وكانت راية المسلمين معه سنة اثنتي عشرة في خلافة أبي بكر، وحزن عليه عمر حزناً شديداً. (الإصابة ٣/ ٢٧).

والقول منه الإقرار، فإن أقررت على شيء في نفسك فقله بالعدل والحق.

والشهادة، قلها بالحق. والحكم، قلّه بالحق. والوصية، قلها بالحق. والفتوى، قلها بالحق.

إذن: فالحق في القول أمر دائر في كثير من التصرفات؛ لأنك إذا قلت بالحق أمكنك أن تعدل ميزان حركة الحياة، فميزان حركة الحياة لا يختل إلا إن رجح باطل على حق.

لأنك إذا حكمت لواحد بشيء لا يستحقه فقد أعطيته ما ليس له، وإنك بعملك هذا تجعل المتحرك في الحياة يزهد في الحركة، لكن إذا ما حافظت على حركة كل متحرك، وأخذ كل واحد حظه من الحياة بقدر ما يعمل اتزنت كل الأمور، ولم يَعدْ هناك قوم يعيشون على جهد غيرهم وعرق سواهم.

إذن: فقَوْلُ العدل هو مناط حركة الحياة الثابتة المستقيمة الرشيدة.

والذي يؤثر في العدل هو الهوى، وحين يُوجد الهوى فهو يحاول أن يُميلك إلى ناحية ليس فيها الحق.

وأولى النواحي أن يكون الأمر مُتعلّقاً بك أو بقرابة لك، وقد تريد إن حكمت - والعياذ بالله - باطلاً، أن تُسعد ذا قُرباك، وأنت بذلك لم تُؤدِّ حقَّ القرابة؛ لأن حقَّ القرابة كان يقتضي أن تمنع عنه كل شيء محرّم وتحمي عرضه، وتحمي دينه قبل أن تحمي مصلحته في النفعية الزائلة.

ولذلك يأمرك الحق سبحانه بأن تقول الكلمة بالعدل، ولو كان المحكوم له أو عليه ذا قُربى؛ لأنك حين تحكم بالباطل فأنت في الواقع حكمت عليه لا له.

ويقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَسُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

وما دام المؤمن قد بدأ إيمانه بقمة القسط، وهو الإيمان، فليجعل القسط

سائداً في كل تصرفاته، وإياك أن تجعل القسط أمراً أو حدثاً يقع مرة وينتهي، بل افعل القسط في كل أمور حياتك .  
ولا يكفي أن يكون المؤمن قائماً بالقسط فقط، بل لا بد أن تكون الشهادة لله . لماذا؟

هَبْ أَنْ رجلاً كافراً بالله - والعباد بالله - وقيم العدل بين الناس، لكنه لا يدخل بذلك العدل في حيشة الإيمان، فالذي يدخل في حيشة الإيمان يكون قائماً بالقسط وفي باله الله .

وبذلك تكون الشهادة وإقامة حقوق الله لا لمنفعة ولا لغاية ولا ليهوى ولا لغرض، وإنما ليستقيم كَوْنُ الله كما أراد الله، وإلا لو حكم أحد بهوى لفسد الأرض .

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَلَوْ أَنَّبَعِ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون: ٧١] .

والذي يفسد ويشوش على العدل هو الهوى .

والمثل العربي يقول: « آفة الرأي هو الهوى » .

وإياكم أيها المؤمنون واتباع الهوى، حتى لا تفسد قدرتكم على العدل، وتجنحوا بعيداً عنه .

